من الغموض إلى الظلال
قراءة مصطلحية في الدراسات القرآنية

الدكتور مهيدي منصور*
mehidi_m77@yahoo.fr
جامعة عبد الرحمن ابن خلدون – تيارت (الجزائر)

تاريخ الارسال2022/09/02 تاريخ القبول 2022/09/15 تاريخ النشر2022/09/23

ملخص:

من المعلوم أنّ لكلّ علم لغته ومصطلحاته التي تحدّد مفاهيمه ، وتحمل مدلولاته، فالتمكّن من هذه العلوم و الإحاطة بها و بأسرارها ؛ يتطلّب التمكّن من هضم مصطلحاتها والتدقيق فيها . قال الشاهد بوشيخي : المصطلح عنوان المفهوم، والمفهوم أساس الرؤية والرؤية نظارة الإبصار التي تريك الأشياء كما هي. فالمصطلح المتّفق عليه قد اختير لدلالة معينة على شيء معلوم للتمييز به عما سواه.

والمصطلح النقدي من المصطلحات العلمية التي أسالت الكثير من الحبر واستفزت العديد من النقّاد في المنظومة النقدية الغربية والعربية على السواء ؛ بسبب اضرابه وتعدّده و تحوله و اتساع مفاهيمه وتداخلها مع مفاهيم أخرى . هذا كلّه في الخطابات البشرية فما بالك بالمصطلحات في الدراسات القرآنية التي توجب علينا الوقوف عليها بكل دقّة ورويّة لكون المصطلح في حقل الدراسات القرآنية يقتضي خصوصية في التناول والطرح والدراسة لشرفه وقداسته و إعجازه .

وعليه جاءت ورقتنا البحثية لتتبع مصطلح الغموض الذي وظّف في نقد الشعر خاصة والنقد الأدبي عامّة ،وقد ذهبنا في هذه القراءة مذهب الباقلاني حين نفى السجع في القرآن. واستبدله بالفاصلة القرآنية .

و مصطلح الغموض من المصطلحات التي أثارت قريحتنا النقدية حين وظف بهذا المصطلح في البحوث والدراسات القرآنية دون تحفظ ،سنذكر بعضها في التحليل ،وعليه حاولنا أن نجد ما يقابل مصطلح الغموض لفظا ومعنى ،مع مراعاة قدسية الخطاب القرآني وما يليق به من مصطلحات سامية . إذا فما هو المصطلح النقدي الذي يناسب مصطلح الغموض ويحمل خصائصه الفنّية ويحقّ لنا توظيفه في الدراسات القرنية ؟

الكلمات المفتاحية: الغموض ، الدراسات القرآنية ،الظلال، دراسة مصطلحية .

Abstract:

It is well known that every science has its own language and terminology that defines its concepts and carries its implications. It requires the ability to digest and scrutinize its terms. The witness Boushikhi said: The term is the title of the concept, and the concept is the basis of vision and vision, the eyeglasses that shows things as they are. The term agreed upon has been chosen to denote a specific thing for a known thing to distinguish it from others.

*المؤلف المرسل

The critical term is one of the scientific terms that has drawn a lot of ink and provoked many critics in the Western and Arab monetary system alike. Because of its strike, its plurality, its transformation, the breadth of its concepts, and its overlap with other concepts. This is all in human discourses, let alone the terminology in the Qur'anic studies, which we have to look at carefully and thoughtfully, because the term in the field of Qur'anic studies requires specificity in dealing with, subtracting and studying for its honor, holiness, and miraculousness.

Accordingly, our research paper came to trace the term ambiguity that was employed in criticism of poetry in particular and literary criticism in general. And replace it with the Quranic comma.

The term "ambiguity" is one of the terms that aroused our criticism when it was employed in Quranic research and studies without reservation. So, what is the critical term that fits the term ambiguity and bears its technical characteristics, and we have the right to employ it in village studies?

Keywords: ambiguity, Quranic studies, shadows, terminological study.

مقدمة:

لقد عرفت ظاهرة الغموض اهتماماً خاصًّا في الدراسات النقدية على نحو عام ، والحديثة منها على نحو خاص ،كأسلوب أدبي له أسبابه الفنّية التي تفرضها الصناعة الشعرية وأساليبها البلاغية ،من استعارات وكنايات وحيل مجازية تلبس النصّ وشاحاً يخفي المعاني ويسترها، حتى أصبح مقياس الوضوح والغموض أحد مقوّمات النصوص، وواضع الحدود بين أنواعها ،ومن دواعي الغموض : إراد الخفاء ،والتوّسع، والإيماء ،واللّمح ،والاختراع ،والتولّد، .ومن الألفاظ التي دلّت على الغموض أيضاً (الغَلِق)و(التّعمية)و(التّعقيد)و(التلويح)و(اللّبس)1. وقد " نال مصطلح الغموض من القلق والاضطراب أكثر من أي مصطلح نقدي آخر لارتباطه بجوهر العمل الإبداعي من حيث المبدع والنص والمتلقي.

و هذا القلق والاضطراب في مصطلح و معنى الغموض حرك دوائر الاستفهام أكثر حين تمّ توظيفه توظيفا مباشرا في القرآن الكريم مما جعلنا نتساءل ،هل نستطيع ان نقول الغموض في القرآن الكريم ؟ ونقول ما هي أسباب الغموض في الآيات القرآنية ؟...وهل مصطلح الغموض مصطلح يناسب كلام الله ،و يوافق قدسيته وخصوصيته ؟ هذه الإشكالات الجوهرية التي دفعتنا للخوض في إيجاد مصطلحا بديلا يوافق القرآن الكريم لفظا ومعنى ويحمل خصائص الغموض في الوقت نفسه .

2. الغموض في الدراسات النقدية

1.2 . مفهوم الغموض:

لقد نال مصطلح الغموض من القلق والاضطراب أكثر من أي مصطلح نقدي آخر لارتباطه بجوهر العمل الإبداعي من حيث المبدع والنص والمتلقي. "ويعود هذا القلق والاضطراب في تحديد مصطلح الغموض إلى تعدد مستوى درجاته، وإلى الاختلاف في تحديد مفهومه، ومعرفة غايته وأهميته، كما تعود إشكالية تحديد مصطلح

الغموض إلى مرادفاته اللغوية الكثيرة مثل التعمية والإبهام والاستغلاق والألغاز وغيرها من التسميات التي ربما يضلل بعضها المتلقي في تقدير أهمية المصطلح ومفهومه ووظيفته"2.

وهو يخالف التعقيد المذموم الذي صوره لنا عبدالقاهر في قوله :"وأمّا التعقيد فإنّما كان مذموماً لأجل أنّ اللفظ لم يرتّب التّرتيب الذي بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتّى احتاج السّامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير طريق "3

و قد اختلف البلاغيون والنقّاد في تحديد معنى الغموض ،ولكنّ يجمع بينهم الاتّفاق على أنّه الكلام الذي يستوجب الجهد في استخراج معناه .بمعنى أنّ" الغموض قد يعني القصد إلى العديد من الأشياء ،أو بمعنى آخر ،الغموض هو احتمالية أن يعني الإنسان أمراً أو آخر أو الأمرين معاً كما قد يعني الغموض أيضاً أن تكون للعبارة معانٍ عدّة "4و عُرف الغموض عند القدماء أنّه" امتناع الكلام عن البوح بمعناه و ممناعته التّمكين منه لأوّل قراءة، إمّا لتعمية مصدرها الإعراب أو التقديم والتأخير وإمّا لإجراء اللفظ إجراء مجازياً يستبهم من أجله المعنى"5.

وعلى العموم ،فإنّ كلمة الغموض عندما ترد في التراث العربي القديم لم يكن يقصد بها انغلاق المعنى وعدم الاتصال مع النصّ أو مع المتلقي، بل كانت ترد بمعنى الغوص وطول التأمل والبحث للوصول إلى الغاية المطلوبة،و الغموض االمقصود "ليس ذلك الذي يصعب فتح أقفاله وتخطي أسواره ليصل إلينا، بل هو السمة الطبيعية الناجمة عن آلية عمل القصيدة العربية وعناصرها المكونة من جهة، وعن جوهر الشعر الذي هو انبثاق متداخل من تضافر قوات عدة من الشعور والروح والعقل متسترة وراء اللحظة الشعرية"6.

يحاول أن يرقى به من التعمية إلى الفنية ، فهو الغموض الفنّي الذي يكون غموضاً بناءً ،يكشف عن رؤيا خلاّقة، ونظرة دقيقة، وفكر ثاقب ،ولا يكون نتيجة رؤية مضطربة ،أو لغة مبهمة ،فالغموض الجمالي الذي نعنيه هو الغموض الذي يتولّد من طبيعة الرؤيا7. وهو غموض يشف عمّا يتضمّنه من المعاني، كما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني ، غموض يحتاج إلى جهد وتأمّل لإدراكه، فيقول عن الإجادة في المعاني وإدراكها بثاقب الفكر:"...وإنّما نحن في أمور تُدرك بالفكر اللطيف ،ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم"8.

وهو بهذا المعنى ذو صفة إيجابية فنية لا يمنع المتلقي من وصول المعنى إليه، ويعدّ الغموض البلاغي من أنواع الغموض المتولّد عن الأساليب البلاغية المختلفة؛ مثل أسلوب الالتفات والتشبيه والاستعارة والمجاز والتورية والكناية وغيرها، وهو ما يخلق نوعاً من تعدّد احتمالات المعنى، فضلاً عن اتساع دائرة التأويل والتفسير الناجمة عن هذا الغموض، " فالغموض بهذا المعنى يشكّل جوهر الشّعر، وهو نتيجة أساسية تميّز النص الشعري عن غيره، وتمنحه الخصوصية الفنّية والجمالية"9.

3.شعرية الغموض :

قدّ عدّ النقّاد الغموض من طبيعة التجربة الشعرية الصادرة من أعماق النّفس وأغوارها المضطربة ،و عن الوعي الشعري المعقّد ،الدافع الذي جعل النقّاد يقرّون بأنّ الطبيعة المعقدّة لماهية الوعي في الشعر هي سبب

غموضه، واستغلاقه على القارئ .10"فالمبدع يتحرّك بحيويته الشّعرية من غموض النّفس الانسانية إلى بيان اللغة في أنساقها التصويرية"11،وهناك مدارس كثيرة ركبت موجة الغموض منها : المدرسة السوريالية ،والمدرسة الرمزية ،والمدرسة العبثية ،ومدرسة اللاوعي

ولقد تفطّن عبدالقاهر الجرجاني (ت471هـ) إلى أنّ الشعر الجيّد لا بدّ أن يتشح بقدر من الغموض، هذا الغموض يزول مع القراءة الواعية، والفكر المتأمل المستنير، وهذا ما دعا إليه كثير من النّقاد في زمننا الحديث. ويستشف من حديث عبدالقاهر في أسراره أنّه لا يرجع هذا الغموض إلى ما يتكبّل به الشعر من قيود كالوزن، والقافية كما ذهب إلى ذلك أبو إسحاق الصابي والمرزوقي، وإنّما يرى عبدالقاهر أن سرّ هذا الغموض يكمن في طبيعة الشّعر ذاته، ولغته الخاصّة المتفرّدة.

ويعلّل عبدالقاهر سرّ جمال هذا الغموض؛ بأنّ المتّعة الحقيقية، واللّذة العميقة، يستشعرها الإنسان بعد المعاناة، والفكر، وبذل الجهد لاستكناه المجهول، ومعرفة بواطن الأمور فمن " المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيلُه أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضن وأشغف"12

و الغموض هو الذي يثير النّفس للبحث ،ويستفزها للتفكير حين يكشف عن طرف المعنى ،ويستر طرفاً آخر يمسك به المتلقي ،ويدلف إلى النصّ ليكشف أعماقه، ويدرك أسراره. فالغموض ملازم للكشف ،إلّا أنّه غموض شفاف ،لا يتجلّى للعقل أو لمنطق التحليل العلمي ،وإنّما يتجلّى بنوع آخر من الكشف ،أي من استسلام القارئ له في ما يشبه الرؤيا ،فإنّنا لا ندرك الرؤيا إلاّ بالرؤية13

وتتجلّى براعة عبدالقاهر الجرجاني عند تفسيره لهذا الغموض، فهو غموض لم ينجم عن سوء التأليف، وتعمد التعقيد، والتعمية، أو عن تلك القيود التي تحدق بالشّعر والشّاعر، وإنّما هو غموض نابع من طبيعة التجربة الشّعرية، ومن لطافة المعنى، ومن تلك اللّغة الشّعرية ذات الخصوصية، والمباينة لغيرها، التي لا تقف بك عند الصورة الأولى، وإنّما تشدّك لتأمّل ما وراء هذه الصورة من بناء ثان يكون هو المقصود والمراد. يقول عبدالقاهر: «هذا، وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح، أغناك ذاك عن الفكرة، إذا كان المعنى لطيفًا، فإنّ المعاني الشريفة اللطيفة لابدّ فيها من بناء ثان على أوّل، وردّ تالٍ إلى سابق"14. ولذلك فإنّ المبدع الواعي – صاحب الرؤيا العميقة التي تعدّ من أهم بواعث الغموض15 – يرى أنّ بنات قريحته ينبغي أن تظلّ مقنّعة لا تسفر عن جمالها إلا لمن يخطب ودّها ،ويغالي في مهرها بالسهر والنظر والفكر والرويّة، ويقدّم عقله وقلبه قربانا لجمالها 16.

وقد أدرك عبد القاهر الأبعاد الجمالية للغموض ،التي يتعمّده المبدع في كتاباته ،لتلحق أثرا في نفسية المتلقي ،وتثيره على المستوى الذهني ،فتجده يتعب ويجتهد ويبذل كلّ طاقته التأملية والمعرفية ؛ لاستجلاء أبعاد المعنى، وعوالم النّص .وهذا ما جعل عبد القاهر أن يجعل الغموض مطلبا جمالياً ،لا يستغني عنه أي مبدع في تصوير تجربته

الابداعية. فأضحى الغموض بمثابة النظرية التي سيطرت على وعيه وتفكيره في كلا الكتابين- دلائل الاعجاز و أسرار البلاغة – ولعلّنا لا نغلو إذا ذهبنا إلى الرأي القائل بأنّ عبدالقاهر استطاع أن يجعل من الغموض نظرية تسيطر على البلاغة العربية حتّى عصرنا هذا17.

وبذلك يصبح الغموض في لغة البلاغة ضرورة جمالية ، يقتضيها العمل الإبداعي ،ويمنحها قدرا من الاستمرارية المتجدّدة. أمّا العمل الذي ينشأ من لغة البساطة والابتذال ،لا يثير القارئ ولا يحرّكه ،فإنّه يقتل في حينه ،ولا تشعر معه النّفس بأيّة لذّة أو متّعة في محاولة الوقوف عنده، لأنّه سافر لا نقاب له، يتأتّى لك بكلّ سهولة ويسر ،وتدرك مراميه وأبعاده من أوّل لحظة من لحظات التّأمل.

فالإيحاء والغموض في الفنّ مطلب جمالي لا يستغني عنه؛ لأنّ الغموض كما قالت روز غريب يمنح الشعر إيحاء يتدرج بتدرج الغموض، و" كلّما ازداد الفنّ غموضاً زادت فيه قوّة الإيحاء"18ومن هنا نادى الفكر الحديث بضرورة وجود مقدار من الروح الإيحائي ،أو الغموض في العمل الشّعري ،يشبه مجرى خفياً لفكرة غير ظاهرة ولا محدّدة19.

وترجع روز غريب غموض المعاني واستغلاقها على الفهم في الشعر إلى أسباب أخرى بقولها: " أما الصعوبة في الشعر فمصدرها إيجازه وما قد يتضمّنه من تعريض وتلميح، ومن ذلك عجز الكلام عن استيعاب المعنى بأسرها أو غرابة المعنى ورغبة الشاعر في الغموض وإثارة الفكر"20.

إنّ هذا الغموض النّصي يتجسّد في ثراء النّص الإبداعي، وتعدّد دلالاته وتنوّع قراءاته، ممّا يخلق نوعاً من اللّذة الحسّية والمتّعة الذهنية لما يحمله من خبايا النّص الذي تحمله المفاجأة و اللامتوقّع . الجديد الذي يصدم المتلقي . في صوره وجمالياته الفنية، وهذه الحال هي التي تخلق نوعاً من التواصل والألفة بين النّص والقارئ الذي يتلقّاه، وهو ما يجعله يشعر بأنّه في حاجة ماسّة إليه مهما يحمل هذا النّص من الغموض كي يطفئ من خلاله لهيب شوقه ومشاعره، ويرضي طموحه الذهني المتعطّش للجديد دائماً..

فأحيانا المعاني لا تنكشف لك ،ولا تسفر عن وجهها، إلّا بعد المراجعة الطويلة والتأمّل الدقيق ،فيكون لها من حسن الأثر على النفس ،ما لا يكون لو تمّ حصولها من غير عناء، ويقول عبدالقاهر :"ومن المركوز في الطبع أنّ الشيئ إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه،ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النّفس أجلّ وألطف ،وكانت به أظنّ وأشغف"21.

فالغموض في الأعمال الإبداعية عملية موجّهة مقصودة وليس عملاً اعتباطياً ، يهدف المبدع من خلاله شحن النصّ بطاقة فنية تجعله غامضاً، بحيث يطرح النص الابداعي بسبب غموضه إمكانيات متعددة، واحتمالات مختلفة للتأويل والتفسير.

ومن تأثيراته على المتلقي فإنّه " ينطوي على غاية معرفية هي إثارة فكر المتلقي ، وتوسيع خياله، وحثّه على النّظر والروية ،وعندئذ تطرب النّفس الإنسانية وتهزّها الأريحية"22، الذي يكون البيان الذي يشعّ من الغموض

سبباً لها،" ليرتقي الغموض الفنّي في عرف عبد القاهر ويصبح ذلك البيان الشفاف الذي يخفي خلف شفافيته ثراء وخصوبة لا يستجيب معها ،ولا يهتز لها إلاّ من أعطى الفنّ قدره ومكانته الحقيقية.

وتزداد قوّة الإثارة كلّما زادت درجة غموض المعنى واحتجاب دلالاته و استبهام مراميه ،وحينها يبدأ المتلقي بمتابعة حركة النّص ،ومحاولة إجلاء الغموض وإماطة اللثام عن المعاني شيئا فشيئا ،بإعمال الذهن وإعادة النظر و دقة التأمل ،والغوص في عوالم النص ،لاستكناه المعنى ،لأنّ "الغموض هو ما يمنح الفهم من أكثر من طريق أو تعدّد احتمالات المعنى"23،وكأنّ اللغة العالية لا تكون إلاّ غامضة ،بعيدة المنال :" كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلاّ أن تشقّه عنه ،وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتّى تستأذن عليه ،ثمّ ما كلّ فكر يهتدي إلى وجه الكشف عمّا اشتمل عليه، ولا كلّ خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كلّ أحدّ يفلح في شقّ الصدفة ،ويكون في ذلك من أهل المعرفة ،كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له "24.

4. خصائص الغموض الفنّية :

ومن خلال ما سبق ذكره استخلصنا جملة من الخصائص الفنية التي ميزت الغموض وهي كالآتي :

- إراد الخفاء ، والإيماء ،واللّمح ،والاختراع ،والتولّد.
- إثارة فكر المتلقي ويجعل النصّ الشعري عصيّاعن التناول
- يتيح تعدد احتمالات المعنى و اتساع دائرة التأويل والتفسير
- يحتاج إلى دقة التأمل والنظر والروية
- المعنى فيه بعيد المنال
- يثري النّص الإبداعي ويزيد في لطافة المعنى
- له قوة إيحائية خارقة
- يعطي رؤيا عميقة وغائرة .
- الغموض دليل الشعرية المتألّقة
- اتساع المسافة الفاصلة بين القارئ و النصّ الشعري

4. مصطلح الظلّ والظلال بديلا لمصطلح الغموض

إذا كان مصطلح الغموض قد نشأ في حقل التجربة الشعرية كممارسة فنّية ،فلقد وجد ما يقابله في الدراسات القرآنية البيانية مصطلح الظلّ والظلال – حسب اعتقادنا– ،حتّى لا نتجرأ على أنفسنا ، ونصف القرآن بالغموض ،وإن كان المقصود منه الغموض الفنّي الجمالي الذي يكون غموضاً بناءً يعتمد على فكر ثاقب ،لا على رؤية مضطربة و لا على لغة مبهمة ومعقّدة.

فكيف لنا أن نصف القرآن الكريم بالغموض وهو الكتاب المحكم ، والمنهل العذب ،والمعين الزاخر الصافي والمعجزة الخالدة ،الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ،.ولا تحصى علومه ،ولا تستقصى معانيه .ومن عجائبه أنه جمع بين الاعجاز والبيان ،فجاء نظمه بناء محكما متلائم الأجزاء ،في أتمّ تأليف وأروع تركيب . وهو الذي قال فيه سبحانه وتعالى :" الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ "25.

وقبل الولوج في عمق الموضوع، واستخراج الخصائص الفنية والجمالية لما يقابل مصطلح الغموض ألا وهو الظل والظلال،قد يكون من الأهمية بمكان ،الوقوف عند المدلول اللغوي والاصطلاحي للفظة الظلّ .

والظلّ لغة يعني :نقيض الضِّحّ ،والظلّ يدعى ظلاً من أوّل النهار إلى الزوال ،ثمّ يدعى فيئاً بعد الزوال إلى الليل26.وأظَلَّني الشيء :غَشِيَني 27.

قال الشاعر :28

فَلَا الظّلَّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطيعُهُ وَلَا الفَيءَ من بَرْدِ العشِّيِّ تذُوقُ

وجمع الظّلّ أظْلالٌ وظِلالٌ و ظُلُولٌ، واستظلّ بالشجرة :استذْرى بها 29.

وفي القرآن الكريم ورد لفظ "الظلّ" مفرداً وجمعاً .

قال الله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** ﴾30

و قال الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾31

وورد الظلّ بمعاني مختلفة في الحديث النبوي الشريف ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلّهم الله في ظلّ العرش ...»32 متفق عليه .

وفي حديث آخر : «السُّلطانُ ظلُّ الله في الأرض لأنّه يدفعُ الأذَى عن النّاس كما يدفعُ الظّلّ أذى حَرِّ الشمس»[33]

قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا** ﴾[34] .

وكلّ شاخص له ظلّ . وفي الظلال جمال وسحر واسترواح ،ولحركة الظلال جمال أخّاذ و ساحر، تستمتع بها النّفس بمقدار ما فيها من مشاعر فنّية، وقد امتنّ الله على عباده بحركة الظلال بقوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ** ﴾[35]،وقد رسم القرآن الكريم صورة شاخصة للظلال ،صورة حيّة نابضة بالحياة والحركة: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا** ﴾[36] .

وكما للشخوص ظلال ،كذلك للألفاظ ظلال وارفة ،ولا يدركها إلّا المتذوّق الحذق ،وصاحب الرؤيا الثاقبة ،كذلك التعابير الأدبية إمّا أن تكون تعابير ذهنية ،تكتفي باستعمال مدلول اللفظ الذهني ،وإمّا أن تكون تعابير فنّية يهيء الأديب فيها للألفاظ نظاماً ونسقاً خاصاً، يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع بتناسق تامّ.

فإنّ ميزة التعبير الأدبي الراقي :"هي الظلال التي يخلعها وراء المعاني ،والإيقاع الذي يتّسق مع هذه الظلال " [37]،وتستمدّ الألفاظ المفردة ظلالها من جهتين[38] :

- الجهة الأولى : مما وراء الشعور ،من الذكريات والصور التي صاحبتها في تاريخها الشخصي والإنساني على الزمن الطويل.
- الجهة الثانية : ظلالها وهي في نسق كامل.

إنّ الخيال هو الذي يتلقى ظلال الألفاظ لكون الظلّ هو الذي يُلقى في الخيال [39].

فإذا كان الغموض الفنّي كفيل بأن يرقى بلغة الشعر إلى سماء الإبداع الفنّي والتألق، و دليل الشعرية المتألّقة التي تتجاوب معها النّفس الإنسانية في ارتياد آفاقها وكشف مجاهيلها ، فإنّ ظلال الألفاظ والتراكيب القرآنية كفيلة بأن ترقى بالقرآن الكريم إلى درجة الإعجاز ،و يضمن من خلالها بقاءه السرمدي وخلوده الأبدي .وإن كان الله سبحانه وتعالى هو الذي قيض له الحفظ في الصدور والسطور حين قال تعالى :" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "[40]

و من جهة تعتبر الظلال مكمن الإثارة الدائمة التي تحقّق للخطاب القرآني فنّيته و إعجازه ،وتفتح مجال التعدّد القرائي فيه، ما جعل المفسرين لم يثبتوا على تفسير واحد وهم يجتهدون في تفسيره منذ أربعة عشر قرن .ومن جهة أخرى ، تحقّق هذه الظلال على مستوى القارئ الوعي بالبحث والاكتشاف على مستوى الألفاظ والتراكيب ،فتخلق متعةً في النّفس وإقناعاً في العقل، وهذا ما أطلق عليه الدارسون "متّعة الاستكشاف ،أو متّعة السعي إلى تحقيق الاغلاق بفكّ رموزه وأسراره"[41].

وعليه تعدّ ظاهرة الوضوح والظلال في النصّ القرآني التي عبّر المفسرون عن جزء منها بالمحكم والمتشابه إحدى سمات النصّ التي تبيّن تفاعل النصّ مع الواقع ،وبعبارة أدقّ هي نتيجة مترتّبة على نحو ضروري على حدوث فعل القراءة والتلقّي ،فحكم الوضوح أو الخفاء ناتج عن جدلٍ في الواقع بين شيء مفهوم بدقّة وآخر غير مفهوم [42].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يقرّ أن النصّ القرآني ليس كلّه بالمستوى نفسه من الوضوح ،حيث يفهم من دون إعمال عقل، بل إنّ سمة الظلال وهي آلية متعلّقة بكيان النصّ ذاته، فيقول تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[43].

ولعلّ ما يلاحظه القارئ المعاصر للتراث الذي خلّفه علماء القرآن هو التشابه المهمّ بين هذا الحكم ،أي التفسير الغامض في النصّ بالواضح فيه، وبين ما توصل إليه النّقد الحديث من أنّ النّص يتضمّن مساحات مضاءة وأخرى مظلمة ،وأنّ بالنّص أجزاء تعدّ بمنزلة (مفاتيح) دلالية تمكّن القارئ والمفسّر من الولوج إلى عالم النصّ، وكشف أسراره وظلاله، ففي كلّ نصّ مهما بلغت درجة خفاء معانيه وإيحاءاته هناك (فتحات ضوئية) تنير طريق القارئ لفهم الجوانب المستترة منه واكتشافها.

وبعد التحليل والاستنباط والمقارنة بين كل من خصائص الغموض والظلال ، توصلنا إلى التقارب الكلي بين المصطلحين والتناغم الكبير الموجود بينهما والمميزات الفنية والجمالية التي تحكمهما .في هذا الجدول :

خصائص الغموض	خصائص الظلال
1. الغموض يثير فكر المتلقي وخياله	1. الظلال مكمن الإثارة الدائمة
2. الغموض يفتح تعدد احتمالات المعنى	2. الظلال تفتح مجال التعدّد القرائي في الخطاب القرآني واتساع دائرة التأويل والتفسير
3. الغموض مطلب جمالي	3. في الظلال جمال وسحر واسترواح
4. الغموض يعطي رؤيا عميقة للمبدع والمتلقي	4. ظلال الألفاظ ،لا تدرك إلّا بالرؤيا الثاقبة.
5. الغموض له قوة إيحائية كلما ازداد الفن غموضاً زادت فيه قوة الإيحاء	5. في الظلال دلالات إيحائية ووظائف تأثيرية
6. الغموض يثري النّص الإبداعي ويزيد في لطافة المعنى	6. في الظل كثافة في المعنى وتصوير ومشاهد
7. الغموض يخلق لذة شعورية ومتعة وجدانية	
8. الغموض إراد الخفاء وبعيد المنال	7. الظلال تخلق متعةً في النّفس وإقناعاً في العقل
9. الغموض دليل الشعرية المتألّقة	8. الظلال تحتاج إلى دقة التأمل والنظر والروية
	9. الظلال دليل الاعجاز القرآني

5. خاتمة:

وفي الأخير حاولنا في هذا العمل المتواضع ،حاولنا – كما سبق ذكره- أن ننفي الغموض في القرآن الكريم، تأدبا مع الله سبحانه وتعالى و تأدبا مع القرآن الكريم ، سعينا للاجتهاد من اجل إيجاد ما يناسب الغموض مصطلحا و مفهوما وتوظيفا ، وكذلك ارتأينا في ذلك ما يليق بمقام القرآن الكريم ،فتوصلنا بعد التحليل والمقارنة إلى مصطلح الظّل والظلال ، لما يجمعه من خصائص فنية تتطابق و تتقارب في كثير من الأحيان بالخصائص التي عدّدناها لمصطلح الغموض .وأبعدنا في ذلك مصطلح **المشكل والمتشابه** اللذان يعدّان جزءا من الظلال في القرآن الكريم .

الهوامش:

[1] ينظر: ثريا عبدالوهّاب العباسي ،موقف النقد العربي القديم من الغموض الفنّي في الشعر ،مجلّة جامعة عبدالعزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جدّة ،المملكة العربية السعودية،م17، ع:2،2009،ص:173.

2 دريد يحي الخواجة، الغموض الشعري في القصيدة العربية الحديثة، دار الذاكرة، حمص ،ط1، 1991، ، ص: 56 ـ 66.

[3] عبدالقاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة ،ص:129.

[4] وليم إمبسون، سبعة أنماط من الغموض، تر:صبري محمد حسن عبد النبي ،المشروع القومي للترجمة ،القاهرة ،ط1،2000،ص:4.

[5] حسين الواد، المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط1،2004م ،ص:280.

[6] دريد يحي الخواجة، الغموض الشعري في القصيدة العربية الحديثة ،دار الذاكرة ،ط1 ، حمص ، 1991 ،ص: 107.

[7] ينظر: رماني ابراهيم، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ص:108.

[8] عبدالقاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز ،تح:محمد رشيد رضا ،دار المعرفة ،بيرروت، دط،1982م،ص:210.

9 كمال أبو ديب: في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ، ط1 ، 1987، ص:231 .

[10] ينظر:سعد الدين كليب ، وعي الحداثة (دراسات جمالية في الحداثة الشعرية –دراسة –) ،منشورات إتحاد الكتّاب العرب ،دمشق ،1997م ،ص:58.

[11] نذير العظمة ،قضايا وإشكاليات في الشعر العربي الحديث ،النادي الادبي الثقافي ،جدّة،ط1،2001م،ص:32.

12 عبدالقاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة،ص:139.

[13] ينظر :أدونيس ،الثابت والتحول ،بحث في الابداع والاتباع عند العرب ،صدمة الحداثة والموروث الشعري ،دار الساقي ،بيروت ،دط ،دت ،ج4،ص:150.

[14] عبدالقاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة،ص:144.

[15] ينظر :خليل موسى ،آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر ،ص:135.

[16] محمد طه عصر ،مفهوم الابداع في الفكر النقدي عند العرب،عالم الكتب ،،القاهرة،ط1،2000م،ص:115.

17 مصطفى ناصف،الصورة الأدبية،دار الاندلس،بيروت،ط1،ص:64.

[18] روز غريب ،النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ،دار الفكر اللبناني ،بيروت،ط2،1983م ،ص:98.

19 ينظر :المرجع نفسه،ص:102.

20 روز غريّب، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط2،1983م، ص56. .

21 عبدالقاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة ،ص:139.

22 محمد طه عصر ،مفهوم الابداع في الفكر النقدي عند العرب ،عالم الكتب ،القاهرة ،ط2000،1م،ص:118.

23 عصام محمد أحمد، الغموض في النص الأدبي،اللغة بوصفها لازمة للوضوح والإبهام معاً، مجلة الرافد تصدر عن دائرة الثقافة (مقال من الانترنيت)

24 عبدالقاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة،ص:141.

[25] هود:1.

[26] ابن منظور ،لسان العرب ،ج5،ص:512،مادة: (ظلّ)

[27] الفيروز آبادي،قاموس المحيط ،ص:964،مادة:ظلّ.

[28] ابن منظور ،المصدر السابق ،ج5،ص:513.

[29] المصدر نفسه،ج5،ص:513.

[30] الرعد:35.

[31] الرعد:15.

[32] رواه البخاري (660)،زمسلم (1031) ،حسّن إسناده الحافظ في الفتح الباري ،ج2،ص:169

[33] سيد قطب ،النقد الأدبي، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ، دار الشروق، القاهرة ،ط1، 1983،ص:70.

34الفرقان :45.

35 النحل:48.

[36]الفرقان :45.

[37] صلاح عبد الفتاح الخالدي ،نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،ص:99.

38 سيد قطب ،النقد الادبي ،ص:70.

39 ينظر :سيد قطب ،التصوير الفنّي في القرآن،دار الشروق ،القاهرة ،1988م،ص: 76.

40 الحجر:9.

41 مصري حنورة،علم نفس الأدب ، دار غريب ،القاهرة،ط1،دت ،ص:45.

[42] ينظر:محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة واشكالية تحديد المعنى،في النصّ القرآني،ص:120.

- [43] آل عمران :7.

6. قائمة المراجع:

تدوّن المراجع في آخر المقال وتذكر البيانات الأساسية الاتية:

- المؤلفات: المؤلف(ة)، عنوان الكتاب، الناشر، (مكان النشر: الناشر، سنة النشر)، الصفحة.

1. أدونيس ،الثابت والتحول ،بحث في الابداع والاتباع عند العرب ،صدمة الحداثة والموروث الشعري ،دار الساقي
2. حسين الواد، المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط2004،1م .
3. خليل موسى ،آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر .
4. دريد يحي الخواجة، الغموض الشعري في القصيدة العربية الحديثة ،دار الذاكرة ،ط1 ، حمص ، 1991 .
5. رماني ابراهيم، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر .
6. روز غريب ،النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ،دار الفكر اللبناني ،بيروت،ط1983،2م.
7. سعد الدين كليب ، وعي الحداثة (دراسات جمالية في الحداثة الشعرية –دراسة –) ،منشورات إتحاد الكتّاب العرب ،دمشق ،1997م.
8. سيد قطب ،النقد الأدبي، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ، دار الشروق، القاهرة ،ط1، 1983.
9. صحيح البخاري (660)،زمسلم (1031) ،حسّن إسناده الحافظ في الفتح الباري ،ج2.
10. صلاح عبد الفتاح الخالدي ،نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.

11. عبدالقاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز ،تح:محمد رشيد رضا ،دار المعرفة ،بيرروت، دط،1982م.
12. الفيروز آبادي،قاموس المحيط .
13. كمال أبو ديب: في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ، ط1 ، 1987.
14. محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة واشكالية تحديد المعنى،في النصّ القرآني،.
15. محمد طه عصر ،مفهوم الابداع في الفكر النقدي عند العرب ،عالم الكتب ،القاهرة ،ط1،2000م.
16. مصري حنورة،علم نفس الأدب ، دار غريب ،القاهرة،ط1،دت .
17. مصطفى ناصف،الصورة الأدبية،دار الاندلس،بيروت،ط1.
18. ابن منظور ،المصدر السابق ،ج5،.
19. نذير العظمة ،قضايا وإشكاليات في الشعر العربي الحديث ،النادي الادبي الثقافي ،جدّة،ط1،2001م.
20. وليم إمبسون، سبعة أنماط من الغموض، تر:صبري محمد حسن عبد النبي ،المشروع القومي للترجمة ،القاهرة ،ط1،2000.

- المقالات: المؤلف(ة)، عنوان المقال، اسم المجلة، المجلد، العدد، السنة، الصفحة.

1. ثريا عبدالوهّاب العباسي ،موقف النقد العربي القديم من الغموض الفنّي في الشعر ،مجلّة جامعة عبدالعزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جدّة ،المملكة العربية السعودية،م17، ع:2،2009.
2. عصام محمد أحمد، الغموض في النص الأدبي،اللغة بوصفها لازمة للوضوح والإبهام معاً، مجلة الرافد تصدر عن